ألا تبّت يداي

نبيل القوقا

هي تلك اللحظات التي كنتُ قد أنهيتُ فيها حصتي في الصف الثالث، كنتُ في طريقي لزاويتي المحبوبة أسفل تلك الشجرة لأمنحَ عقلي وجسمي قِسطاً من الراحة، شاردَ الذهن خاليَ الهموم، أصافحُ هذا الفتى وذاك، يعمُّني السلام الداخلي والحب. هذا ما كان يُفترض أن يكون عليه حالي في تلك اللحظات، لم أكن أسمع سوى صوت صفير بُلبُل وهو يغرد على أنغام حفيف أوراق الشجر.

يتحدث معي ويومئُ لي برأسه وأومئ له برأسي.

وفي لحظة ساورني شعورٌ لا أعلم إن كانت تلك هي إشارةٌ إلهيةٌ أم هي الصدفة المحضة التي دفعتني لكي أُلقيَ تحيتي على أحد زملائي المدرّسين كرغبة مني بنشر طاقة السلام والحب التي كانت تجول بداخلي إلى المحيط الخارجي، طرقت بابَ الصف ثلاث مرات ولم يجبني أحد.

طرقته ثلاثاً أخرى ولكن لم يجبني أحد، عندها اتخذت قراري بفتح هذا الباب. فتحت الباب لأشاهد هذا المعلم وهو يسدد ضربته على راحة كف أحد الطلاب، فقد خُيل إلي أنها الضربة الخامسة أو السادسة، لم أعلم ترتيبها، ولكن هول المشهد جعلني أرى تلك الضربة وكأنها المئة بعد الألف.

وكأن هذا المعلم قد ارتدى رداء حارس الطغيان الأسدي والضامن لدوامه، وذلك الطفل قد ارتدى رداء ريش صغير قد ضل طريقه ليقع بين براثن ضبع ضال. اندفعتُ لأحمي هذا الطفل من تلك الضربة سائلاً المعلم:
ويحك يا رجل! ماذا فعل هذا الطفل ليستحق كل هذا العقاب؟ هل قتل أحدهم؟ هل آذى أحدهم لهذا السوء؟ ما هو الجُرم الذي اقترفه؟

فأجابني وعيناه قد اشتعلت غضباً: «بدو يجلطني بيحلش الواجب، بيصلّحش معي، إيش أعمل، أقتلو وأخلُص منو»؟

يحدثني وعينٌ مني على المعلم والأُخرى على الطفل.

وفي هذه اللحظة انهار ذاك السلام الذي كان يسكنني، فقد كانت عينا هذا الطفل تلفازاً له قدرةٌ على نفض غبار ذاكرتي إلى تلك اللحظات التي كنت فيها قد ارتديتُ ثوبَ الجلاد، وكأن سامر قد عاد إلى الحياة مجدداً.

سامر هو ذلك الطالب المهمِل في دراسته، المهمِل لملابسِه التي كانت تتمزق من قلة الاهتمام.

فقد كان سامرُ ابن الثامنة في الصف الثالث، لا يبدي أيَّ اهتمام لدراسته ولا لكُراسته ولا حتى لملابسه، وكأن مصطلح الاهتمام لم يكن قد نما لديه أو حتى قد رآه. سامر الذي لم يُجدِ معه لا ترغيب ولا ترهيب ولا عقاب.. نعم فقد عاقبته مراراً وتكراراً بهذه اليدين.

ألا تبَّت يداي...!!

عاقبتُه وكلّي رغبةٌ أن يكون صفي من المتفوقين ويحصد أعلى النسب بين الفصول، فقد أعمتني مصالحي وغلبَتني هذه الرغبة، فما عدتُ أرى الأمور إلا من خلال بُعد واحد.

وفي صباح يوم ماطر، تملّكني شعور النشاط والرغبة في الذهاب باكِراً للمدرسة، خرجتُ من المنزل ووصلت

للمدرسة في تمام الساعة السادسة والربع قبل طابور الصباح، وفي طريقي إلى غرفة المعلمين تسرب إلى أذني صوتُ أنين وكأنه طيرٌ قد ذُبح من نحره ينازع الحياة من أجل البقاء. كان هذا الطير ما هو إلا سامر، فقد ارتدى سامر قميصاً لا يقيه شرَّ البرد ولا حر الشمس.. يحكُّ يديه جيئةً وذهاباً، أملاً منه بأن يولّد بعضَ الدفء ليديه الصغيرتين. هرعت إليه مسرعاً وكنت قد خلعت معطفي لأُلبسه إياه، وفي تلك اللحظة رمقني سامرُ بتلك النظرات، نظرات تركَت قلبي يرتجف.. نظرات لم تكن خوفاً ولا رُعباً ولا حزناً، فقد كانت نظراتِ دهشة، كون سامر لم يعتد عليَّ أن أُعامله بهذا اللطف.

سألت سامر لماذا لم ترتدِ ثياباً تقيك قسوةَ هذا البرد؟

رد سامر: مش عارف.

كررتُ عليه السؤال مرةً أُخرى، سامر أخْبِرْني، لا تخَف، لماذا يا سامر لم ترتدِ ملابسَ تقيك من هذا البرد؟

رد سامر: مش عارف.

وكأن سامر يُخفي ما هو أعظمُ من أن يدلي به في كلمات فليلة عابرة، كلماتٍ تُذكر فتُنسى،

وبعد إلحاحي عليه نطق سامر وقال: منها ... منها.

منها ...؟ ظننتُها كلمة، ولكن ما حمَلَته في جعبتها كان أكبرَ من أن يحملَه طفلٌ في هذه السن.

قلت له: مَن هي؟

أجابني بنبرة صوت راجفة: مَرْت أبويا.

وفي هذه اللحظات بدأت ملامحُ قصة سامر تتضح.

ضممتُه أكثرَ لقربي، وقلت له أنت الآن معي، لا داعي للخوف، فقط تكلم وقُل لي ما السبب في عدم ارتدائك لثياب أثقل؟

أحسستُ بشعور سامر في تلك اللحظات، فقد شعر بشعور لم يكن قد أحسَّ به من قبل، لقد شعر بالاهتمام.

قال سامر: مَرْتْ أبويا حكتلي اطلع يلّا عالمدرسة، هيك لبسَك كويّس وطلّعَتني وسكّرت الباب.

صُدمتُ من الطريقة التي وصف بها ذلك الأسلوب الذي عاملته به... أيُّ قلب ذاك الذي يتحمل أن يفعل ذلك بطفلٍ في الثامنة من عمره؟!

سألته وأين والدتك يا سامر؟

فأجابني: ماما في بيت سيدي، وبابا ما بيخليني أروح عليها، أصلو ضربها وطردها، وراحت وما عاد رجعت.

في هذه اللحظات كنتُ قد لعنتُ تلك اليدين اللتين قد عاقبتا سامر ذات يوم.

نظرتُ له وقلت: لكنَّ أمَّك تحبُّك، وأنا على يقين أنها تريدك وتريد أن تراك دائماً.

فرد قائلاً، وكنت قد توقعتُ أن ينكر ذلك، أنا كمان بحبها وبعرف إنها بتحبني.

يا إلهي ما أعظمَك...!!

سبحان من زرع حب الأم في القلوب رغم تقلُّب الظروف.

ولكن لماذا لا تهتم بدراستك يا سامر؟

سامر: محدِّش أصلاً بيسألني عن المدرسة، لا بابا ولا مرتُه، ولا حَد بيهمّو أصلاً أنجح ولّا أرسب.

بس هيك خطأ كبير يا سامر، لازم تهتم بدراستك حتى تصير من المتفوقين...!!

سامر: أنا بدّي أحل واجباتي وأدرس بس مرّت أبويا ما بتخلّيني، مرة تقولي اشتري ومرة تقولي اشطُف ومرة كنّس.

واللّه وكأني أقرأ في رواية أو أشاهد مسلسلاً تراجيدياً...!!

ما يصدقه القلب يرفضُه العقل، شيءٌ أكثر صعوبةً من تفسير ماهية مقادير الكون اللامتناهية.

سألتُه هل تستطيع حلَّ الواجب؟؟

حاول أن يجيب، ولكن رجفة الخوف من أن يترك لي وعداً كانت أكبرَ من أن يجيب.

قلتُ له محفّزاً: سامر لو تحسنتَ قليلاً سأعطيك أجمل مكافأة!!

هي أغلى مكافأة تتمناها!!

نظر إلي سامر وكأنه يقول لي أكمل!! .... قلت له إن تحسنتَ قليلاً سأجعلك تكلم أمَّك مكالمة من هاتف المدرسة.

فما كان لسامر إلا أن ركض إليَّ قابضاً على يديَّ وكأنها عصفور قد كابد عناء الدنيا ليلتقطه.

تلك الحرارة الناتجة عن ضغط سامر ليدي ما كانت إلا عبارة عن سيالات عصبية تحمل صوراً قد كابدها هذا الطفل في غياب أُمه، فقد شاهدتُ الضياع في عينَي هذا الطفل البريء، في عينينِ قد ضاعتا ومن ثم أضاعتاني.

سامر مخاطباً إياي: أمانة ... أمانة يا أستاذ .. أنا موافق بس ما تقول لبابا.

قلت له: لن أخبره، وستكلمها بإذن الله شريطةَ أن تجتهد. فرد وهو يريد إبرام تلك الصفقة مهما كانت الشروط: أنا موافق.. أنا موافق.

بدأ سامر يهتم بنفسه وواجباته وكأنه ذاك العريس الذي يؤهب نفسه للقاء محبوبته.

اتفقت مع زملائي أن نشكِّل له حلقةَ دعم، فقد كان سامر ذكياً سريعَ الحفظ.

أحد الأعمال الفنية ضمن معرض «بروفايلات» سيرة مدينة في قلقيلية.

لقد تحسن مستواه في غضون أسبوع، كانت أياماً قليلة بالنسبة إلينا كمعلمين، ولكنها كثيرةٌ كثرة الوجع الذي كابده هذا الطفل وهو يعُد الثواني التي تفصله عن مهاتفة والدته.

وفي يوم من الأيام تحدثتُ مع المدير حول مهاتفة أم سامر، لم يُبدِ المديرُ أيَّ تردد كون هذا الأمر إنسانياً بحتاً.

أمسكتُ الهاتف ويدي ترجف، وكأنني قد تقمصتُ دور هذا الطفل...!!

بدأ الوقتُ يتباطأ وصوتُ دقات قلبي أعلى من ضجيج الأطفال حولي...

أم سامر: ألوو؟ ألوو؟ ... مين إنت ليه ما بتحكي.

تمالكتُ أعصابي وقلتُ أنا معلم سامر!

فانهارت الأم من البكاء وهي تقول «حسبي الله على اللي كان السبب، حرموني منّو، حرموه حناني».

أقسمُ لكم أن ما حلَّ بي في تلك اللحظات جعلني في أضعف أحوالي، فلم أستطع التحمُّل.. اغرورقت عيناي ولم أستطع كبحَ جماح دموعي.

قلتُ لها إن سامر يريد أن يحدثك، فردت قائلةً أرجوك.. أرجوك.. فقط دعني أكلمه.

«كلمات صادقة، فبالرغم من أنني عرضتُ عليها سلفاً أن تحدث سامر إلا أنها رجتني، وكأنها اعتادت أن ترجو هذا وذاك لكي تحادثَ ابنَها، ولكن من دون أي نتيجة.

سامر: ماما؟ ماما؟

الأم صامتة تحاول إخفاء حزنها وسامر يحاول ويحاول.

ومن ثم أجابت عليه نعم حبيبي، وبدآ يتحادثان حول محبتهم لبعضهم، وحول الاشتياق الذي أحرق قلوبهم، أخذا يلعنان تلك التعويذة التي ألقاها والدُه على أُمه قبل إرسالها لبيت أهلها.

تلك التعويذة الملعونة جسدت في كلمتين «إنتِ طالق».

وفي لحظة من اللحظات طلَبتْ أُم سامر من سامر أن تحدثني.

لم أرَ شيئاً بهذه الأهمية قد يدفعها أن تقطع حديثَها مع ابنها لتحادثني.

أُم سامر: أستاذ ممكن طلب صغير.

قلت: أكيد.

أُم سامر: ممكن آجي أشوف سامر في المدرسة ولو لثانية؟

أنا: بالطبع يا أم سامر... ما حد بيقدر يمنعك من زيارة سامر.

فرحَت فرحاً تسرَّب عبيرُه من فتحات هاتفي.

أم سامر: شكراً يا اللّه، كنت واثقة إنك مِش هتخذِلني.

عقدنا الاتفاق يوم الخميس على «الفورسة» أي فترة الاستراحة في المدرسة.

مرت الأيام والساعات والدقائق، الكل يرقُب رزنامته، فقد كان كلٌّ من سامر وأمه يتحضران إلى هذه اللحظة بكل شغَف وحماس.

اليوم الخميس

أتى سامر على غير عادته يرتدي ملابسَ أنيقة كان قد ارتداها قبل أن ينام في اليوم السابق... وعلى طابور الصباح قابلني بابتسامة كنتُ قد راهنتُ نفسي أنني لن أراها، ولكنه الآن يُخسرني الرهان، وما أجملَها من خسارة...!!

اقترب سامر مني وقال: اليوم أستاذ؟ فأجبتُه نعم، اليوم.

ذهب سامر لفصله يسارع الوقتَ ليلقى والدته.

انتهت الحصة الأولى.

ومن ثم الثانية.

فالثالثة، إلى أن أتى موعد اللقاء.

أغلق سامر حقيبته وركض بكل ما أوتي من حُب وشوق وحرمان.

كانت الأم بانتظاره أسفلَ الدرج.

جثَت على رُكبها وعانقته عناقاً يذيب الروح، يذلل الآهات، عناقاً كاد ينطق ويتكلم.

ومن ثم حدَّث سامر وأُمه عن حياة كلٍ منهما للآخَر.

سألته أُمُّه عن دراسته: سامر، هل ما زلتَ من المتفوقين؟

سامر: أكيد يا ماما بِدي أصير منهم.

الأستاذ وعدّني إني أكلّمِك إذا تحسَّنِتْ واهتمّيت بِدّراسْتي.

نظرت الأُم إلي تشكرني على هذا العرض الذي تمنيتُ لو أنه اكتمل...!!

استمر تحسُّن سامر في دراسته، فقد أصبح ملتزماً، يحل واجباته، كما أصبح يهتم بثيابه.

أدركتُ حينها أن العقاب والترهيب لم يكونا ليُجديا حتى ولو استعملتَ جميع القوة في هذا الكون.

سامر أصبح من الطلاب المتفوقين، فقد أظهر ذكاءً وحنكةً في جميع المواد.

عم السلامُ وإن كان سلاماً جزئياً حياةَ سامر، سلاماً قد تمناه هذا الطفل منذ أن أرسل الوالدُ أُمَّه لبيت جده.

فقد سارت الرياحُ بما لا يشتهيه سامر وأُم سامر.

هذا السلام الذي عمَّ حياةَ سامر قد انتهى... نعم انتهى.

على حين غِرَّة أتى أبو سامر يوماً من الأيام للمدرسة مندفعاً بسبب سماعه أخباراً مفادُها أن أُم سامر تقابل ولدها داخل المدرسة.

فهو يرفض أن تقابله كنوع من أنواع العقاب لها، وهو لا يدركُ بأنه يقطع شرايينَ وأوردةَ صغيرِه.
طالَب أبو سامر المديرَ بنقل سامر من المدرسة.. لينهي بذلك فصلٌ عنوانُه الحبُّ والحياة.

وبعد أن تم نقلُ سامر من المدرسة، وفي الخامس عشر من إبريل، وهو تاريخ يجب أن يُخلَّد، انتهت مأساةُ سامر بوفاته إثر حادث سير.

فقد صدمتهُ سيارةٌ وهو في طريقه للمدرسة.

****

تُرى ماذا كان يجولُ بخاطرك يا سامر؟

هل كان سامرُ يخطُّ لنا رسالةً مضمونها «أن ليتنا نعرفُ سبيلَ الاستقرار الذي تتجه كلُّ ذرات الكون إليه... ليتنا نُحسنُ أن نهتدي كما اهتدت الذرّاتُ إلى طريق تكوين روابط لا تشقى بعدها أبداً.... ليتنا نُحسنُ انتقاء أطراف العلاقة والرابطة كما تُحسن هي.. ليتنا نتعلم منها أن عمق التداخل يزيد الرابطةَ قوةً لا ضعفاً وتفككاً كما هي أحوالُنا مع مَن نحب.. ألا فلتهنأ الذراتُ بعالمها.. ولنبقَ نحن نندبُ حظنا على أمل أن يُحدث اللّه بعد ذلك أمراً.

ما كان لهاتين اليدين أن تعاقباك يوماً يا سامر.

اليومَ أشجبُ جميعَ أنواع العنف المدرسي.

لا ولن أقبلَ أن أرى هذه الممارسات مجدداً، فلا أحدَ يعلمُ كم سامرٍ يوجدُ بيننا.

تحياتي لكم جميعاً.

معلم سابق في مدرسة ذكور بيت حانون الابتدائية «أ»
باحث ومقيّم مشاريع في المركز الفلسطيني للديمقراطية وحل النزاعات